مشكلات تدريس التاريخ وسبل معالجتها

نايف محمد شبيب(*)

ملخص: يتناول البحث عرضا موجزا لأهم المشكلات التي تواجه تدريس مادة التاريخ وسبل معالجتها من خلال التجربة الشخصية في البحث والتدريس بالتاريخ سنوات عدة، ويمكن إجمال هذه المشكلات بخمس (الدينية والقومية والمذهبية والوطنية والعلمية)، وترتيب هذه المشكلات من حيث أهميتها أو خطورتها يعتمد على طبيعة المشكلات التي يواجهها المجتمع بشكل عام، فربما تتقدم المشكلة القومية على الدينية أو المذهبية على القومية والدينية وهكذا. . . ، أما المشكلة العلمية في دولنا فعادة ما تكون آخر المشكلات التي تخطر ببالنا مع أنها تعد المشكلة الأولى في دول العالم المتقدم الذي تتكون بعض دوله من خليط قومي أو ديني أو مذهبي أعقد مما هو موجود في مجتمعنا! فبالنسبة للبلدان العربية الشرقية فان الخليط الديني الرئيس (الإسلام و المسيحية) مع وجود أقليات من أديان أخرى، والخليط المذهبي الرئيس بالنسبة للمسلمين (سنة وشيعة بكل تفرعاتهما) وبالنسبة للمسيحيين (أرثوذكس وكاثوليك)، والخليط القومي الرئيس (العرب والأكراد والتركمان والأرمن والسريان. . .) فإذا أردنا تدريس مادة التاريخ فتاريخ أي دين أو أي مذهب أو أي قومية سيُدَرّس؟ بالتأكيد إن ذلك سيثير مشاكل واحتقانات وتشنجات لدى الأطراف التي يهمل تاريخها، وذلك كله لا يحل إلا بإبراز الجوانب الحضارية في تاريخ كل بلد على حساب الجانب السياسي الذي عادة ما يكون السبب في زرع روح الفرقة بين أبناء البلد الواحد، أما الجوانب الحضارية فهي عادة ما يشترك فيها جميع أبناء البلد من كل الأديان والمذاهب والقوميات.

قبل الحديث عن المشكلات التي تواجه تدريس مادة التاريخ لا بد من الحديث وبشكل مختصر عن تحديد مفهوم التاريخ وبيان هل هو علم أم لا، وإذا كان علماً فهل

(*) أستاذ الفكر الإسلامي المساعد في قسم التاريخ بكلية الآداب-جامعة الموصل، العراق.

هو ضروري كبقية العلوم؟ وما هي الفائدة المتوخاة منه ليسهل علينا أمر تحديد المشكلات؟

فإذا رجعنا إلى اصل كلمة تاريخ (history) نجد أنها مأخوذة من الكلمة الإغريقية هستوريا (historya) بمعنى التعلم، وحسب ما استخدمها أرسطو طاليس فهي تعني سرداً منظما لمجموعة من الظواهر الطبيعية سواء جاءت مرتبة ترتيبا زمانياً أم غير مرتبة (جوتشلك، ١٩٦٦، ص. ٥٥).

أما كلمة تاريخ في العربية فإنها مأخوذة من كلمة أرخ أي وقّتَ، والتأريخ والتوريخ، تعريف الوقت (ابن منظور، د. ت.، ص. ٤)، وعرفه البعض بأنه ذاكرة الماضي ومعرفته كمعرفة المستقبل تتطلب إيحاء وشفافية روحية خاصة (الشرقاوي، د. ت.، ص. ٥)، ويقول كولنجود إنه نوع من أنواع البحث العلمي (كولنجود، ١٩٦١، ص. ٤١).

وعلى ذلك نستطيع القول إن التاريخ هو علم دراسة الماضي، وإقرارنا بأنه علم يحتم وجود شروط معينة لتعلم وتعليم هذا العلم للإفادة منه حاله حال العلوم الأخرى التي تفيد البشرية، وبالتالي فإن هناك أسباباً تحتم دراسة هذا العلم وتدريسه، وإن عملاً كهذا لا بد وأن يصادف مشكلات جمة على قدر أهميته. بل ربما تكون المشكلات التي نشأت وتنشأ عن التاريخ هي أخطر من المشكلات والأزمات التي تنشأ عن العلوم الأخرى، لأن دراسة التاريخ تعني بشكل عام الاهتمام بماضي الأمة والوطن والمجتمع فضلاً عن كونها الطريق الوحيد لمعرفة ماضي أي شخصية أو أسرة أثرت وتؤثر في الماضي أو الحاضر (جوتشلك، ١٩٦٦، ص. ٥٥).

إذا المهمة بصعوبتها ومسؤوليتها ستلقى على عاتق باحث التاريخ، وعليه يجب أن يكون المؤرخ ذا معرفة دقيقة بالمكان والزمان المحددين لوقوع الحادثة التاريخية التي يريد دراستها (كار، ١٩٦٢، ص. ١٥)، ولا يتم له ذلك إلا بالإفادة من العلوم الأخرى وتوظيفها للوصول إلى أعلى نسبة من الحقيقة (سليمان، ١٩٨٤، ص. ٦٣)، وقد حدد فيكو[١] مجموعة من الشروط على المؤرخ الالتزام بها نوجزها بما يأتي (كولنجود، ١٩٦١، ص. ١٣٩-١٤٠؛ الملاح، ٢٠٠٥، ص. ٣٢١-٣٢٣):

---

(١) مفكر إيطالي (١٦٦٨-١٧٤٤م) اشتهر بآرائه حول فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع التي نشرها في كتابه (العلم الجديد) الذي صدر عام ١٧٢٥م وأعيد طبعه مرات عدة لإقبال الناس عليه، وللآراء القيمة التي طرحها في هذا الكتاب عده الكثيرون مؤسسا لعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ (الملاح، ٢٠٠٥، ص. ٣١٧-٣١٨).

١. توظيف الدراسات اللغوية لفهم التطور التاريخي لأي شعب من الشعوب، لأنها أداة توصيل الأفكار والتعبير عنها وهي دائمة التطور والنمو.

٢. ضرورة التعامل مع الأساطير القديمة التي كانت شائعة في فترة ما على أنها أمور معبرة عن (وجدان، وأسلوب تفكير، ومعتقدات) أناس تلك الحقبة الزمنية، وعدم النظر إليها بالعقلية العلمية المعاصرة والاستخفاف بها.

٣. عدم التسليم بالروايات التي أوردتها المصادر تسليماً كاملاً أو تفسيرها تفسيراُ حرفيا، بل يجب أن تُخضع للفحص والتمحيص والتحقيق فضلاً عن معرفة أحوال الرواة وانتماءاتهم ومقاصدهم من هذه الروايات.

٤. قراءة الروايات في ضوء الطابع العقلي الخاص للمرحلة التي ظهرت فيها تلك الروايات لأن لكل مرحلة من مراحل تطور المجتمع طابعاً عاماً يميز عقليات الناس فيها ويطبع إنتاجهم الثقافي والفكري بطابعه الخاص.

وعلى قدر تعلق الأمر بموضوع المؤتمر ومن خلال التجربة الشخصية في البحث والتدريس في التاريخ لمسنا بعض المشكلات التي تواجه مدرس التاريخ بعضها مشترك وبعضها خاص بمكان دون آخر، وذلك يتوقف على طبيعة انتماء المدرس والطلاب، أو المستمعين للمحاضرة بشكل عام، مع أن بعض المدرسين لا يأبه لمثل هذه الحالة أو لم يلاحظها أصلاً!

ويمكن أن نجمع هذه المشكلات حسب انتماءات المجتمع إلى خمس مشكلات رئيسة هي (الدينية والقومية والمذهبية والوطنية) فضلاً عن المشكلات العلمية، وترتيب هذه المشكلات من حيث أهميتها أو خطورتها يعتمد على طبيعة المشكلات التي يواجهها المجتمع بشكل عام. فلربما تتقدم المشكلة القومية على الدينية أو المذهبية على القومية والدينية وهكذا. . . ، أما المشكلة العلمية في دولنا فعادة ما تكون آخر المشكلات التي تخطر ببالنا مع أنها تعد المشكلة الأولى في دول العالم المتقدم الذي تتكون بعض دوله من خليط قومي أو ديني أو مذهبي اعقد مما هو موجود في مجتمعنا!

أولاً: الدينية

من المشكلات التي تواجه العاملين في الدراسات التاريخية بحثا وتدريساً هي تكوّن المجتمع في بلد واحد من أديان عدة، فتاريخ أي دين سَيُدَرّس؟ لأن التركيز على تراث دين معين على حساب الأديان الأخرى بالتأكيد سيثير حفيظة إتباع هذه الأديان.

وبالنسبة إلينا في المنطقة العربية فإن غالبية المجتمع هم من المسلمين وعلى ذلك وضعت أكثر المناهج الدراسية، يبقى أن هناك خصوصية لبعض البلدان مثل لبنان وسوريا ومصر والسودان التي تضم مجتمعاتها عدداً لا باس به من المسيحيين، فضلاً عن المجتمع العراقي الذي يضم - فضلا عن المسيحيين - أقليات دينية أخرى من الصابئة واليزيديين.

وإن المنهاج الدراسي بالتأكيد يتناول جله تاريخ الدولة الإسلامية بِعَدّه الأهم والأطول في المنطقة، وقد أثار الحديث عن التاريخ الإسلامي بعض أهل الأديان الأخرى حتى أطلقت عليه بعض المواقع القبطية عبارة (الغزو الإسلامي)[٢].

لاشك أن للمسلمين دوراً كبيراً في حكم البلاد العربية وذلك باعتراف كثير من الباحثين والمحققين، فالمسلمون من أنقذ شعوب المنطقة من نير الحكومات المستبدة التي كانت تحكم البلاد العربية وغير العربية. لكن المشكلة ليست بحكم المسلمين للمنطقة ولا بدراسة تاريخ المسلمين، بل - حسب ما نعتقد - فيمن وضعوا المناهج الدراسية في البلاد العربية الذين تعمدوا (أو نسوا) إدراج التشريعات التي بينها القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة حول الصورة التي يجب بها معاملة أهل الأديان الأخرى وهي مسألة مهمة جدا ولا سيما في البلدان التي تتكون مجتمعاتها من أديان أخرى من غير المسلمين، وبقدر تعلق الأمر بدراسة التاريخ يجب بيان المكانة التي حظي بها أهل الأديان الأخرى في ظل الحكومات الإسلامية، ومن ثم دورهم الكبير في الحضارة العربية الإسلامية. فإذا ما رجعنا إلى كتب التراث العربي والإسلامي فإننا سنجد أن لأهل الأديان الأخرى ولا سيما المسيحيين منهم دورا كبيرا في كثير من المنجزات الحضارية (للمزيد من المعلومات عن دور غير المسلمين في الحضارة العربية (راجع عبد الرحمن، ١٩٧٧؛ فروخ، ١٩٨٠)، ويكفي في هذا المضمار أن نشير إلى أن أطباء الخلفاء (وهي مكانة مرموقة ورفيعة) كان أغلبهم من غير المسلمين[٣].

لقد تم في العراق مثلاً معالجة الأمر بالنسبة لتدريس مادة التربية الإسلامية بالنسبة لطلاب الدراسة الابتدائية والثانوية بأن يعفى الطلاب غير المسلمين من دراسة هذه

(٢) يُراجَع على سبيل المثال لا الحصر الموقعان التاليان على الشبكة الدولية للمعلوماتية (internet):
http://www.coptichistory.org/new_page_1523.htm,
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=81408

(٣) على سبيل المثال عائلة الـ بختيشوع المسيحية الذين تولوا معالجة الخلفاء العباسيين منذ عهد الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور (ابن أبي أصيبعة، د. ت.، الباب الثامن).

المادة، أما في الجامعة فتم استحداث مادة الثقافة الجامعية للطلبة غير المسلمين مقابل مادة الثقافة الإسلامية التي تدرس في معظم الأقسام. ولكن المشكلة في مادة التاريخ التي هي مادة أساسية في جميع المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية فضلا عن أقسام التاريخ في الكليات الإنسانية، إذ لا زالت مناهج التاريخ تركز على تقديم الجانب السياسي على حساب الجانب الحضاري، وعلى ذلك نلاحظ ان توجهات الطلبة غير المسلمين - في الكليات الإنسانية - تكون صوب أقسام اللغات الأجنبية أو الاجتماع أو الجغرافية أو الحقوق أو الإعلام. . . إلا نادرا - أو من لا يسمح لهم المعدل - فإنهم يأتون إلى أقسام التاريخ.

ثانياً: القومية

إن فكرة القومية فكرة معاصرة ظهرت في أوروبا في العصر الحديث وكانت حلا لكثير من المشكلات التي عانت منها أوروبا في تاريخها المعاصر ولا سيما الصراعات الدينية والمذهبية، فاقتبس بعض مفكرينا هذه الفكرة في القرن التاسع عشر الميلادي من أجل توظيفها ضد الحكم العثماني، ولكن للأسف لم توظف بالشكل الذي وظفت فيه في أوروبا إذ إنها مزقت النسيج الاجتماعي في كثير من الدول العربية لسوء استخدامها ففي أوروبا عندما يقال - مثلا - القومية الفرنسية فإنها تعني كل من يحمل الجنسية الفرنسية ويتكلم الفرنسية سواء أكان فرنسيا أصلاً أم لا، وكذلك الدول الأخرى (أي ما يقابل عندنا في الوقت الحاضر فكرة الوطنية تقريباً) أما في الدول العربية فإن فكرة القومية سُيست وأخذت بعداً آخر ركز على العنصر العربي ومن ثم ولّد ذلك إحساساً لدى الأقوام غير العربية بأنهم ليسوا جزءاً من هذه الأمة لأنهم غير معنيين بالأمر (للمزيد من التفاصيل عن نشأة القومية ومقارنة تطبيقاتها في الشرق والغرب أنظر (عيساوي، ١٩٥٣، ص. ١١٣)).

ونستطيع القول إن ملابسات المشكلة القومية في الوطن العربي في العصر الحديث - بالنسبة للتاريخ - هي عين ملابسات المشكلة الدينية ولكن بشكل آخر، فمن المعلوم أن غالبية المجتمع في كثير من الدول العربية هم من العرب، وعلى ذلك فإن الحديث عن العرب (كقوم) أو (كعنصر) هو أمر طبيعي لا ضير فيه، بل إن البحث فيه وتدريسه أمر لا بد منه وهذا ديدن جميع الدول والأقوام في كل بقاع المعمورة، لكن المشكلة هي أنه في بعض الدول العربية قوميات وأقليات غير عربية (أكراد، أتراك، أمازيغ،

أحباش. . . الخ) وأن فرض التاريخ العربي عليهم على أنه تاريخهم وبالمقابل إهمال تاريخهم وتراثهم يثير حفيظتهم واستياءهم وإن لم يعلنوا ذلك لأنهم لا يشعرون بالانتماء إلى هذا التاريخ.

صحيح إن بعض هذه الأقوام في بعض الدول تشكل أقليات صغيرة منصهرة اجتماعيا في المجتمع العربي لكن ذلك لا يعني إلزامهم بالتاريخ والتراث العربي، وعندما نتكلم هنا نريد أن نكون أكثر دقة إذ نقصد بالحديث فترة (تاريخ العرب قبل الإسلام) فهو يدخل في مناهج غالبيبة الدول العربية في دراسة التاريخ فضلاً عن تاريخ العرب في دولة الخلافة الإسلامية (الملاح وآخرون، ٢٠٠٧، ص. ٦٢).

أما بعد عصر حروب التحرير والفتوحات الإسلامية وخضوع جميع أراضي (الدول العربية الحالية) وغيرها لحكم الخلافة الإسلامية فإن الأمر اختلف نوعا ما لأن اللغة العربية أصبحت لغة ثقافة ذلك العصر (كما اللغة الانكليزية حاليا) فتعلمها الفارسي والتركي والكردي والزنجي والرومي. . . . على حد سواء، وبالتالي فإن مفهوم الحديث عن تاريخ الدولة العربية الإسلامية (دولة الخلافة) اتسع ليشمل كل هذه الأقوام ومن ثم ظهر من بينهم (أي الأقوام غير العربية) علماء كبار تركوا أثاراً طيبة لا تزال شاخصة ينهل منها طلبة العلم والعلماء فضلاً عن ظهور كثير من القادة والحكام الذين كان لهم ما لم يكن لغيرهم من عامة العرب (للمزيد من التفاصيل عنه دور العلماء غير العرب في الحضارة العربية الإسلامية أنظر مثلاً (علي، ١٩٥٠؛ فروخ، ١٩٧٩؛ مرحبا، ١٩٨٨)).

ثالثاً: المذهبية

المقصود بالمذهبية هو تعدد المذاهب العقدية والفقهية داخل الدين الواحد، ففي المسيحية مثلا يقال (كاثوليك، أرثوذكس، بروتستانت. . .) وفي الإسلام يقال (سُنّة، شيعة، اباضية. . .) كذلك الحال في جميع الأديان.

والصراع المذهبي الأبرز حالياً في الساحة العربية هو الخلاف السني الشيعي وقد بدا ذلك جليا بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م وان كانت جذوره تعود إلى فترات سابقة، وما يهمنا هنا العلاقة بين المذهبية ومناهج. تدريس مادة التاريخ، ففي العراق مثلا كانت المناهج ذات اتجاه عربي قومي إسلامي بشكل عام، لكن بعد الاحتلال والتطورات التي أعقبته حدثت تغييرات عدة على كثير من المناهج. ولتلافي المشكلات شكلت لجان عدة من أساتذة متخصصين من السنة والشيعة لوضع مناهج

دراسة التاريخ بما يتلاءم وتوجهات الطرفين بالتركيز على المشتركات في التراث (وهي كثيرة) دون المساس بخصوصيات المذهب الفكرية.

أما في التعليم العالي سواء في الدراسة الأولية (البكالوريوس) أو في الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) فإن التاريخ يدرس وفق الفترات الزمنية فالتاريخ القديم (سومري، كنعاني، فرعوني، أشوري، بابلي...)، وكذلك تاريخ الدول العربية قبل الإسلام (دول اليمن، كندة، الأنباط، تدمر، الحضر...) لا خلاف فيه ولا اختلاف في تدريسه سوى ما يحدث في بقية العلوم من اختلافات ووجهات نظر علمية صرفة، أما الاختلافات المذهبية فتظهر في التاريخ الإسلامي فتدريسه أصبح وفق المفهوم المذهبي ففي الجامعات السنية يُدَرس التاريخ وفق تاريخ الخلافة الإسلامية (راشدي، أموي، عباسي، أندلسي...) أي وفق ما هو معمول به في عموم الدول العربية، أما في الجامعات الشيعية ولا سيما الدينية منها فإن تدريس التاريخ يتم وفق فترات ولايات الأئمة عليهم السلام لعدم اعترافهم بشرعية الحكم في غير الأئمة من سلالة الحسين عليه السلام.

لا شك أن هناك دولاً عربية كثيرة تعاني من هذه المشكلة، ولاسيما الدول ذات التعليم المركزي الذي يتطلب مناهج موحدة في جميع جامعات البلد مما يعني أن هناك شرائح كثيرة تُكْرَه على دراسة تاريخ غير مؤمنة به (ونحن هنا لا نريد أن نحكم على أي التاريخين اصح ولا أي منهج أدق، بل مجرد تسليط الضوء على الشرخ الذي يُحدثه تدريس التاريخ في صفوف المجتمع الواحد) وبغض النظر عن ذلك فإن المشكلة لا تقف في حدود التدريس والتعليم والتعلم بل ما يترتب عليها من انشقاقات اجتماعية تنبني عليها مواقف سياسية قد تتحول في بعض الأحيان إلى مواجهات مسلحة.

رابعاً: الوطنية

الوطنية مصطلح حديث يراد به الكلام عن مساحة معينة من الأرض يعيش عليها مجموعة من الناس قد يختلفون في الأعراق والأديان والمذاهب والقوميات، في الغالب تجمعهم مصلحة واحدة هي الحفاظ على هذه الأرض التي يعيشون فيها، ومساحة الأرض هذه تسمى (الوطن) وحدودها هي الحدود السياسية المعترف بها من الدول المجاورة وبقية دول العالم، وقد يختلف مفهوم الوطن والمواطنة بين مجموعة وأخرى حسب النظام السياسي الحاكم في كل بلد.

فمن المعلوم أن مفهوم الوطنية في الدول العربية يعني - فضلاً عن المحافظة على أمن البلد ووحدته السياسية وثرواته الاقتصادية وبنيته الاجتماعية - الولاء للنظام الحاكم أيا كان، إذ يُعَد كل مواطن وإن كان مخلصا لبلده لكنه غير موال للنظام الحاكم (خائنا) للوطن، وعلى العكس فإن كان غير آبه بأمور الوطن وغير مخلصاً في عمله لكنه موال للنظام الحكم ومناصراً له فهو من أكثر الناس وطنية!

كذلك فان شعور بعض الأقليات القومية والدينية والمذهبية بالتهميش من جانب أنظمة الحكم دفع بهم لإعطاء ولائهم إلى خارج بلدانهم التي يعيشون فيها أو ينتمون إليها. وقد تباين نوع الولاء الخارجي أو سببه فمنه ما كان دينيا أو مذهبيا أو قوميا... مما أحدث خللاً في مفهوم الوطنية عند هذه الأقليات.

وبالنسبة لموضوع البحث (مشكلات تدريس التاريخ) فإن المناداة بالوطنية وإن كانت لقيت آذانا صاغية لدى الكثيرين إلا أنها أحدثت شرخا آخر لدى أصحاب التوجهات (الأممية) أي الذين ينادون بوحدة الأمة العربية أو وحدة الأمة الإسلامية. فدعاة القومية العربية يؤكدون على وحدة التاريخ العربي قديما وحديثا ويرفضون رفضا تاما تدريس التاريخ وفق المفهوم الضيق للوطنية لأنه - حسب قولهم - يرسخ عمليات التقسيم التي تعرض لها الوطن العربي بعد نهاية الحكم العثماني ومنها اتفاقية (سايكس بيكو) عام ١٩١٦م[٤]، التي رسمت الحدود السياسية الحالية لمعظم دول الوطن العربي. أما دعاة الأمة الإسلامية فان مفهوم الوطنية يشكل عندهم خطراً كبيراً على وحدة المصير المشترك لجميع أبناء الأمة الإسلامية من العرب وغيرهم وهو بذلك يأخذ مدى أوسع من مفهوم دعاة القومية العربية ليشمل جميع المسلمين في الشرق والغرب، وإن هناك دارين فحسب دار الإيمان التي تشمل جميع البلاد الإسلامية وإن كان فيها كثير من غير المسلمين فلا ضير في ذلك، ودار الكفر التي تشمل جميع البلاد غير الإسلامية وإن كان فيها بعض المسلمين، وعليه يجب أن تكون مناهج تدريس التاريخ وفقا لهذا المفهوم، وأن تكون خالية من المفاهيم القومية والوطنية لأن بلاد المسلمين كلها وطن واحد لا أوطان متعددة.

---

(٤) هي الاتفاقية التي تمت بين بريطانيا وفرنسا في أيار من سنة ١٩١٦م قادها عن الجانب البريطاني السير مارك سايكس وعن الجانب الفرنسي سكرتير السفارة الفرنسية في لندن فرانسوا جورج بيكو ولذلك عرفت الاتفاقية بهذا الاسم نسبة إليهما، ورسمت الحدود الحالية لكل من لبنان وسوريا وفلسطين والأردن والعراق (محافظة، ١٩٨٥، ص. ٤٢).

خامساً: العلمية

مع إن المشكلة العلمية تبدو للوهلة الأولى لا علاقة لها بالتأثير على المجتمع بشكل مباشر ولا سيما في عالمنا العربي الذي قليلاً ما يهتم بالأمور العلمية أو أنها لا تكون من أولوياته على أقل تقدير، ولذا أمسينا في مؤخرة الركب الحضاري حتى إننا لا نجد جامعة عربية في أول خمسمائة جامعة عالمية(٥) ولكن إذا رجعنا إلى حقيقة الأمر نجد أن للمشكلة العلمية دورا كبيرا، بل ربما إذا تجاوزناها يمكننا أن نتجاوز بقية المشكلات الأخرى أو على الأقل نخفف من حدتها إذ ما زالت مناهجنا الدراسية ثابتة لم يطرأ عليها تغيير من عقود خلت.

إن المشكلات التي تحدثنا عنها آنفا كانت عينها موجودة في المجتمعات والدول في العالم المتقدم بل ربما كانت أكبر وأعقد(٦) لكن المفهوم الوطني الذي تكلمنا عنه آنفا قد ذوب جميع الفروق العرقية والدينية والمذهبية، ومن ثم كان تركيزهم صوب التقدم العلمي في المجالات المختلفة.

إن الاهتمام بتربية الإنسان وتنشئته التنشئة الصحيحة وفق المعايير العلمية السليمة والأخلاق القويمة كفيلة بتجاوز كل المشكلات. إننا في مجتمعنا العربي الكبير نعاني من سوء النظام التعليمي وتخلفه، وبالنسبة للتاريخ تحديدا فالتعليم عندنا خاضع لاعتبارات عدة يكون العلم في آخرها، وهذه الاعتبارات تختلف من بلد لآخر فهناك مناهج تركز على القومية وهناك مناهج تركز على الدين وهناك مناهج تركز على المذهبية وهناك مناهج تركز على الوطنية، ولو جعلنا الجانب العلمي في الأولوية ورُبيَّت الأجيال على ذلك بالتأكيد سنحصل على نتائج طيبة بعد جيلين أو ثلاثة أجيال شرط أن يبدأ ذلك المنهج من رياض الأطفال والتعليم الابتدائي حتى الدراسات العليا، لأن وجود مجتمع

---

(٥) لأكثر من مرة نشر معهد التعليم العالي في جامعة جياو جونغ شنغهاي الصينية (Institute of Higher Education, Shanghai Jiao Tong University) تقريرا تقييميا مفصلا حول مكانة الجامعات من الناحية العلمية ورتب أفضل خمسمائة جامعة في العالم، ولكن للأسف لا يوجد في التصنيف أي جامعة عربية مما يدل على أنها أصبحت بمنأى عن الركب العلمي والحضاري الذي تتبارى فيه الجامعات العالمية بيمنا كان لإسرائيل سبع جامعات حاضرة في كل مرة.

(٦) على سبيل المثال لا الحصر ما حدث من صراع وتنافس بين الولايات الأمريكية التي أدت إلى الحرب الأهلية الأمريكية سنة ١٨٦١م (نعنعي، ١٩٨٣، ص. ١٢٣)، والصراع المذهبي الذي اجتاح أوروبا في مطلع عصر النهضة بين الكاثوليك والبروتستانت الذي راح ضحيته الكثيرون (صالح، ١٩٨١، ص. ١٦٩).

متعلم ومثقف كفيل بإذابة العصبيات الدينية والمذهبية والقومية بل وحتى القبلية التي أصبحت لها مكانة كبيرة في بعض الدول العربية.

إن الدعوة للنهوض بالجانب العلمي ولا سيما في الدراسات التاريخية واستخدام المنهجيات الحديثة وتوظيف العلوم الأخرى لخدمتها لا يعني مطلقا - كما سيظن البعض - تنحية الدين - الذي يعد الأساس في التعليم لدى الكثيرين - جانباً، بل على العكس من ذلك فإن تعاليم الأديان تحث على التعلم وطلب العلم، كما أن الدين يحث على الفضيلة والعلم جزء من الفضيلة(٧).

مسألة مهمة متعلقة بالجانب العلمي (وما يهمنا هنا دائما تدريس التاريخ والبحث فيه) هو ضرورة إدخال مدرسي التاريخ دورات علمية وثقافية مركزة يتم من خلالها توجيههم بكيفية التعامل مع الطلاب الذين يخالفونهم في الانتماء الديني والقومي والمذهبي، كما هو معمول به في الدول المتقدمة. إذ نلاحظ أن كثيراً من طلبة الجامعات ليسوا من الوطن الأصلي بل هم لفيف من شتى بقاع الأرض من مختلف الأعراق والقوميات والأديان والمذاهب، ويأخذون الشهادات العليا ويعودون إلى بلدانهم وهم يحملون انطباعا جيدا عن تلك الجامعات وأولئك الأساتذة الذين كثيراً ما يشيدون بعلميتهم أمامنا كلما كان الحديث عن التقدم العلمي.

ما زال طلبة العلم عندنا بل واغلب الأساتذة أيضاً لا يستطيعون تغليب الجانب العلمي على الجانب القومي والديني والمذهبي في البحث والتدريس في التاريخ، بل على العكس من ذلك إذ وظف البعض الدراسات التاريخية في خدمة القومية والدين والمذهب. وإذا رجعنا إلى حقيقة الأمر فلا يوجد قوم ليس عندهم مناقب ولا يوجد قوم ليس فيهم مثالب سواء أخذنا الأمر من زاوية القومية والعرق أو من زاوية الدين والمذهب (والحديث دائما عن الأشخاص لا عن الأديان ولا الأعراق بذاتها) فالرسالات السماوية دعوتها كلها واحدة ومنبعها واحد لكن الخلل في أتباعها الذين أحدثوا الانشقاقات والتحريفات فظهرت المذاهب والفرق في كل دين وكل يدعي الحق معه والباطل مع غيره، وكذلك القوميات والأعراق فهي في أصلها واحدة فالجميع يعودون

---

(٧) كقول الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً: من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة (الترمذي، د.ت.، ج ٥، ص. ٢٨، حديث رقم ٢٦٤٦)، كما كان المسيح عليه السلام يُعلم ويحث على التعلم رغم الصعوبات التي كان يواجهها من اليهود، انظر مثلا: إنجيل متى، ٧/ ١٥-١٩.

في أصلهم إلى أب وأم (آدم وحواء) فانتشروا في بقاع الأرض وصنفوا أنفسهم وتفاضلوا فيما بينهم وعلا بعضهم على بعض، هذا الأمر إذا فهمه مدرس التاريخ ونقله إلى طلابه بشكله البسيط نتجاوز كثيراً من المشكلات التي تعصف بمجتمعنا العربي اليوم.

لائحة المراجع

ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم. (د.ت.). *عيون الإنباء في طبقات الأطباء*. بيروت: مكتبة الحياة.

ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم. (د.ت.). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.

الترمذي، محمد بن عيسى. (د.ت.). *سنن الترمذي*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

جوتشلك، لويس. (١٩٦٦). *كيف نفهم التاريخ*. بيروت: دار الكتاب العربي.

سليمان، حسين محمد. (١٩٨٤). *المدخل لدراسة علم التاريخ*. الدمام: دار الإصلاح.

الشرقاوي، محمود. (د.ت.). *التفسير الديني للتاريخ*. القاهرة: دار الشعب.

صالح، محمد محمد. (١٩٨١). *تاريخ أوروبا في عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية ١٥٠٠-١٧٨٩*. الموصل: دار ابن الأثير.

عبد الرحمن، حكمت نجيب. (١٩٧٧). *دراسات في تاريخ العلوم عند العرب*. الموصل: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

علي، محمد كرد. (١٩٥٠). *الإسلام والحضارة العربية*. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

عيساوي، شارل. (١٩٥٣). *مشكلات قومية*. بيروت: دار مكتبة الحياة.

فروخ، عمر. (١٩٧٩). *تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون*. بيروت: دار العلم للملايين.

فروخ، عمر. (١٩٨٠). *تاريخ العلوم عند العرب*. بيروت: دار العلم للملايين.

كار، إدوارد. (١٩٦٢). *ما هو التاريخ*. القاهرة: مؤسسة سجل العرب.

كولنجود، ر. ج. (١٩٦١). *فكرة التاريخ*. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

محافظة، علي. (١٩٨٥). *موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية: ١٩١٩-١٩٤٥م*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

مرحبا، محمد عبد الرحمن. (١٩٨٨). *الجامع في تاريخ العلوم عند العرب*. بيروت: منشورات عويدات.

الملاح، هاشم وآخرون. (٢٠٠٧). *مجلة آداب الرافدين*، *٤٧*(٢).

الملاح، هاشم. (٢٠٠٥). *المفصل في فلسفة التاريخ*. بغداد: المجمع العلمي العراقي.

نعنعي، عبد المجيد. (١٩٨٣). *تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث*. بيروت: دار النهضة العربية.